كلمة طلاب الفقيد
للأستاذ الدكتور كمال الأشقر

الأستاذ الدكتور رئيس مجمع اللغة العربية..

الأستاذ الدكتور رئيس جامعة دمشق..

السادة أعضاء المجمع..

ذوي الفقيد الكرام..

الحضور الكريم..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

قــم يــا معــلمي وانظــرِ الرُّفَقــا
أودى بهــم ألــمٌ.. ومــا رَفَقــا
خسِــرَتْ دمشــقُ الهــوى دَمِثــاً
وبصـيرُ تنـدبُ فـي الـدُّجى الأَلَقـا
مَنَحــتْ مروءتُــكَ النفــوسَ هُــدًى
واخْتَــرْتَ نهــجَ المُبــدعينَ تُقــى

صعبٌ عليَّ أن أقفَ في هذا الموقفِ مؤبِّناً أستاذاً عزيزاً، نهلتُ من علمهِ الكثير، رحمك الله أيها الراحل الكريم. لقد كنت عَلَماً من أعلامِ الفكرِ، وطوداً من أطوادِ الجامعةِ.

الموتُ حقيقة. يقولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ [المُلك: ٢].

فـ (الموت) ليسَ فناءً، إنما هو خلقٌ، ووجود، وانتقالٌ إلى الحياةِ الأبديّة؟

من أينَ أبدأُ فيك رحلةَ كلامي، وأنتَ الكلامُ كلُّ الكلام؟! من أينَ أبدأُ وأنت العلمُ كلُّ العلم، مفردٌ بصيغة جمع، اندغمت فيك المتناقضات..جمعتَ الرّقّةَ والصّلابة، العذوبةَ والجزالة، الشّفافيّةَ والقوّة، العنادَ والدّماثة، فتلوّنت وتنوّعت حياتُكَ، تتنقّل فيها من محطّة إلى محطّة بين مدارجَ، ذاتٍ قوامٍ واحد، فكم هي قاسيةٌ لحظاتُ الوداعِ والفراقِ، التي تُسجَلُ وتُختزنُ في القلبِ والذاكرة. وكم نشعرُ بالحزنِ وفداحة الخسارة والفجيعة. نودعك فتنحني قامتُنا وكبرياؤُنا احتراماً وتقديراً لمقامك الرفيع. إن العطاء في الحياة سرٌ من أسرار الخلود، سرٌ عرفت كيف تجعله نهجاً ونمطاً لحياتك، فمهما حاول الموتُ فلن يمحو ذكر من أعطى كلَّ هذا العطاء. يعز علينا فراقُكَ، في وقت نحتاج فيه إلى أمثالك من المعلمينَ الأوفياءِ الصادقين. ومهما كتبنا من كلماتِ رثاءٍ، وسطّرنا من حروفٍ حزينةٍ باكية، فلن يوفيَّكَ طُلّابكَ حقَّكَ لما قدّمتَهُ من علمٍ ووقتٍ وجهدٍ وتفانٍ من أجلِهم.

لقد أخرجتنا من الظلمات إلى النور، وغرستَ في نفوسِنا بذورَ العلمِ فَأَزهرت وأثمرت، فالكثيرُ من طلابكَ الذينَ علمتَهم أصبحوا أساتذةً وباحثينَ في الجامعات، يتابعون رسالتَك التي زودْتَّهم بها. لقد علمتنا الكثير عن مجالاتِ التصنيفِ النباتي والنباتاتِ الطبيةِ والبيئة النباتية والتنميةِ المستدامة وعنِ الإنسان ومحيطِهِ الحيويِّ كما علمتَنا الكثيرَ من المصطلحاتِ النباتية. ولم تتوقف عندَ هذا الحد، بل علمتَنا كيفَ أنَّ اللغةَ هي كاملُ التراثِ الحي في قديمهِ وحديثه، وأنّها مستودعُ القيمِ والأفكار، وأنّها كالمرآة ينبغي صقلُها لتتراءى فيها موضوعاتِ هذا العصر بأفكاره الجديدة. وأن اللغةَ كالحياة، نظامٌ

كيميائيٌ حيويٌ محفورٌ في العقل، بوساطة جيناتٍ قادرةٍ على الإدارة الذاتية المفتوحةِ على التطور والتقدمِ إلى الأمام.

لقد كنت علامةً مُتميِّزةً في طريقِ الصعود العلميِّ منذ أن نشأت، وترعرعت، فأَعطيتَ ما استطعت أن تعطي؛ وقد وَرَدَ في الحديث الشريف: «إذا مات الإنسان انقطعَ عملُه إلا من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علمٍ يُنتفَعُ به، أو ولدٍ صالح يدعو له».

لا يموت الإنسان لمُجرَّد أنَّ نفسَه انقطع، فالذين كتبوا، والذين خطُّوا مسيرَتَهم بالعلم، والذين تفانَوا، بقُوا، وسيبقَون إلى الأبد؛ فالمعلم الحق بفضل علمه يمتدُّ مع الزمن، بما أعطى، وما بذلَ، وما ساهَمَ في تربية الأجيال.

كانَ رحمهُ اللهُ مثالَ العملِ الدؤوبِ والإصرارِ والمثابرة. لم يترك ندوةً أو مؤتمراً أو لقاءً علمياً في بِقاعِ الأرضِ يخصّ التصنيفَ النباتي وسلامةِ البيئةِ إلا وشاركَ فيه فجابَ معظم دولِ العالمِ ليُفيدَ ويستفيد، والقائمة تطول..

لست هنا في موقع الشهادةِ للفقيدِ أو عدِّ مناقبِه والسلوكياتِ والصفاتِ الحميدة التي تحلّى بها، أو تلخيصِ مسيرةِ /٩٠/ تسعين عاماً، بل هي دعوةٌ للعمل من بعده بجدٍ وإخلاص والاحتذاءِ بسجاياه والتحلي بصفاتِه الحميدةِ ونقلِ أمجادِه وأخلاقه ومآثرِه إلى الأجيال المتعاقبة ليُعتزَ بهم وبرصيدِهم الذي هو جزءٌ من الرصيدِ التاريخي، ومن التراثِ التربوي والتعليمي والبحثي. حتى يستحقوا مثلَه هذا الذكرَ الطيبِ في حياتهم وبعدَ مماتِهم؟! هذه هي الدروسُ وهذه هي العبرُ التي يجب استخلاصُها من تأبينِ هذا المعلمِ والباحثِ الكبير الذي كانت تتلخصُ فلسفتُه في الحياة في العمل الجاد والعطاء بغير حساب ومحبةِ الآخرين! لذلك كان قريباً من قلوب الجميع.

أتذكر عام ١٩٧٦ ألفٍ وتسعمئةٍ وستة وسبعين عندما كنت في الجامعة، دخل أستاذُنا المرحوم بإذنه تعالى ليلقيَ علينا محاضرتَه وكان على عكازه مصاباً بكسرٍ في قدمه، لم يشأ أن يتغيبَ ويلغيَ المحاضرةَ متحملاً ألمه، حريصاً على إيصال المعلومة إلى طلابه.

عليك رحمةٌ من الله واسعةٌ ملءَ الأرضِ والسماء.. أيها الأستاذُ الكبير.. لقد رحلتَ عنّا رحلةَ النهاية..وكلُّنا بعدَك راحلون، ومضيتَ ونحنُ لا شكَ على نفس الخُطا ماضون. نتذكر خطاكَ وأنت تدخلَ قسمَك لتبدأ عملك باكراً.. تركتَ بصماتِك في كل زاويةٍ من زوايا قسمِ النباتِ الذي أشدته. لقد غيبك الموتُ «جسداً، لكن ستبقى في قلوبِنا ما بقينا في قيد هذه الحياة. ولن ننساكَ، فقد أديت الأمانة، وقمت بدورِك على أحسن وجه. ستبقى الرَّمزَ والعلمَ والمعلمَ، وستبقى كتبُكَ ومؤلفاتُك منارةً لنا. يقول الشاعرُ أبو فراس الحمداني:

سَيذكرني قومي إذا جَدَّ جدُّهُم
وفي الليلةِ الظّلماءِ يُفْتَقَدُ البدرُ

لقد كنت عظيماً في حياتِكَ وأنتَ اليومَ عظيمٌ بعد وفاتكَ! تغمدكَ الله بواسعِ رحمته، وأسكنَكَ فسيح جناتِهِ، وألهمَ طلابك وأهلَكَ ومحبيكَ الصبر والسَّلوان.. وإنا لله وإنا إليه راجعون.